مُنصِفات جديدة

الدكتور نوري حمودي القيسي

يمثل الانصاف في القصيدة الجاهليـــة الجانب الاخلاقي الرفيع الذي عرفته الطبيعة العربية السليمة ، وجبلت عليه الاخلاق الاصيلة التي اتصف بها هذا الانسان ، ولم يبخل الشاعر بهذه الصفة على خصومه الذين حاربوه ، فنحهم من انصـــافه الشيء الكثير فذكر بطولاتهم وبلاءهم ، ولعـلّ اصالة الخلق ، وسلامة الفطرة التي كانت تملي على صاحبها مثل هذا السلوك . هما الدافعان الحقيقيان اللذان مهدا لهذا الجانب السلوكي ، على الرغم من كل الاعتبارات التي كانت تحيط بالمجتمع العربي آنذاك ، وعلى الرغم من كل القيم المتعارف عليها في خضم ذلك الوسط القبلي المتزمت [1] .

ومن محاسن الصـــدف ان أقف ، وأنا أقلب مظان الأدب وخزائن التراث على مجموعة أخرى من القصائد التي حملت صفة الانصاف ، وتمثلت فيها سمات هذا الجانب الاخلاقي ، مما يصح ان يجمع الى جانب القصائد التي عرفت بهذا الاسم وقد نص القدامى في أحاديثهم على هذه التسمية فذكر ابن حمدون[2] في تذكرته : ان من اشعار العرب المنصفة قول حكمة بن قيس الكناني :

نهيت أبا عمرو عن الحرب لو يرى ... برأي رشيد أو يؤول الى حزم

---

(١) نشـــرت مقالا بعنوان المنصفات في الشعر الجاهلي في مجلة الاقلام العدد السادس السنة الاولى ونشر الاستاذ عبد المعين الملوحي مدير احياء التراث القديم في وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية العربية السورية كتاباً باسم المنصفات .

(٢) ابن حمدون : التذكرة الحمدونية . مصورة في معهد الدراسات الاسلامية بجامعـــة بغداد الجزء الثالث . الورقة ١٢١ .

دعاني يشب الحرب بيني وبينه ... فقلت له لا بل هلمّ الى السلم
فلما أبى أرسلت فضلة ثوبه ... اليه فلم يرجع بعزم ولا جزم
وأمهلته حتى رماني بحرها ... تغلغل من عيّ عويّ ومن أثم
فلما رمانيها رميت سواده ... ولا بد أن يرمى سواد الذي يرمي
فبتنا على لحم من القوم عوذرت ... اسنتنا فيه وبتوا على لحم
وأصبح يبكي من بنين واخوة ... حسان الوجوه طيبي الجسم والنسم [1]
ونحن نبكيّ اخوة وبنيهمُ ... وليس سَويّ قتل حق على ظلم

وقال المسوّر بن زيادة :

وكنا بني عمّ جرى الجهلُ بيننا ... فكلٌّ يوفي حقه غير وادع
قتلنا من الآباء شيباً وكلنا ... الى حسب في قومه غير واضع
فلما بلغنا الأمهات وجدتم ... بني عمكم كانوا كرام المضاجع
فما لهم عندي ولا لي عندهم ... وان أكثر المغرور وشي التتابع [2]

وفي طبقات ابن سلّام ، وفي الطبقة الخامسة يذكر خداش بن زهير بن ربيعه [3] . وهو كما يقول أبو عمرو بن العلاء اشعر في قريحة الشعر من لبيد وبعد أن يسرد له بعض الابيات يقول : وقال القصيدة المنصفة [4] .

فأبلغ ـ إن عرّضتَ ـ بنا هشاماً ... وعبد الله ابلغ والوليدا
أولئك إن يكن في الناس خيرٌ ... فإنّ لديهم حسباً وُجودا
هُمُ خيرُ المعاشرِ من قريش ... وأورامم ـ اذا قدحت ـ زنودا

(١ ، ٢) كذا في المخطوطة .

(٣) ابن سلام : طبقات الشعراء ١١٩ .

(٤) المصدر نفسه ١٢١ ورواها صاحب الاغاني ١٩/٧٨ .

وقد أشار الى بعض أبياتها الاستاذ عبد المعين الملوحي في المنصفات ١٣٨

بانا يومَ شمْطة قد أقمنا عمودَ المجد ، إن له عمودا
فجاؤا عارضاً برداً وجئنا كما أضرمت في الغاب الوقودا[1]
فعانقنا الكماة وعانقونا عراك النمر واجهت الاسودا
فلم أرَ مثلهم هزموا وفُلّوا ولا كذيادنا عُتُقاً نجُودا

وفي المفضليات ٢/١٦٥ مفضلية تنسب لعوف بن الاحوص وقيل انها لحداش بن زهير . يتحدث فيها الشاعر عن معركة كانت بين قبيلة الشاعر وبين كنانة وبكر وقريش ، ويبدو اعتراف الشاعر بشدة بأس كنانة وقريش وبراعتهم في الحرب ، ثم هو يعترف بهزيمة قومه ، ويعزو ذلك الى كثرة رجال العدو وتفوقهم في القوة وشدة المراس . والقصيدة في معانيها والفاظها وفكرتها تماثل المنصفات التي اسلفت الحديث عنها :

لما دنونا للقباب وأهلها أتيح لنا ذئب مع الليل فاجر
أتيحت لنا بكر وتحت لوائها كتائب يرضاها العزيز المفاخر
وجاءت قريش حافلين بجمعهم وكان لهم في أول الدهر ناصر
وكانت قريش لو ظهرنا عليهم شفاءً لما في الصدر والبغض ظاهر
حبت دونهم بكر فلم نستطعهم كأنهمُ بالمشرفية سامر
وما برحت بكر تشوب وتدعي ويلحق منهم أولون وآخر
لدُن غدوة حتى أتى الليل وانجلت غمامة يوم شره متظاهر
وما زال ذاك الدأب حتى تخاذلت هوازن فارفضت سُليم وعامر
وكانت قريش يفلق الصخر حدها إذا أوهن الناس الجدود العواثر

وفي ديوان الاعشى ٢٥٩ قصيدة يمدح بها بني شيبان بن ثعلبة في يوم ذي قار ، وقد أشار في بعض ابياتها الى بعض المعاني التي يلمس فيها لون من الانصاف . يقول الاعشى :

(١) ان استخدام الشطر الاول من البيت في كثير من المنصفات يدل على التزام اصحاب المنصفات باشكال تعبيرية معينة ، واستخدامهم لمعان مرسومة . وهذا يدل ايضاً على صنعة كلامية تذكرنا بمدرسة الصنعة عند اوس بن حجر ومن تبعه من الشعراء .

فلله عينا من رأى من عصابة　　أشدّ على أيدي السُّعاةِ من التي
أتتهم من البطحاء يبرق بيضها　　وقد رفعت راياتها فاستقلت

وسلمة بن الخُرَشُب الأنماري يعيّر بني عامر بهزيمتهم ، ويندد بهم وبرأسهم عامر بن الطفيل ، وهو مع هذا يشيد بشجاعة عامر وفروسيته وجوده ، تنويهاً بالنصر على مثله ، وانصافاً لعدوه ، وهذا خلق كريم من اخلاق الفروسية فيقول [1] :

فدىً لأبي اسماء كلُّ مُقَصَّر　　من القوم من ساع بوتر وواتر [2]
بذلتَ المخاض البزل ثم عِشارها　　ولم تنْهَ منها عن صفوف مظائر [3]
مُقرّنُ أفراس له بر واحل　　فغاولْتهمْ مستقبلات الهواجر [4]

ومُرّة بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان يعجب من عوف الذي سطا على ماله ، وكان بالأمس يهيب ذلك ، ثم يتوعده أن لو شاء لشنها عليهم شعواء ، يسترد بها أبله ويرعاها حيث يريد ، ثم مدح عوفاً على عادة فرسان العرب من تمجيد الرجل لقرنه ، والقائل لمقتوله فيقول [5] :

يا عوف ويحك فيم تأخذ صرمتي　　ولسكنت أسرحها امامك عزبا [6]

---

(١) المفضل الضبي . المفضليات ١/٣٥ ـ ٣٦

(٢) اسماء : هي بنت قدامة الفزارية ، لجأ اليها عامر يوم الرقم ، فسكناه الشاعر باسمها . وفداه مع انه مهزوم تعظيما لعدوه . والمساعي بالوتر : الطالب للثأر . والواتر : الذي وتر غيره .

(٣) المخاض : الابل الحوامل . البزل : جمع بزول ، وهو ما استكمل الثامنة وطعن في التاسعة . العشار : جمع عشراء ، بضم ففتح ، وهي التي أتى عليها من حملها عشرة أشهر . الصفوف : الناقة الغزيرة التي تصف بين محلبين في حلبة واحدة . والمظائر ، بضم الميم ، التي عطفت على ولد غيرها ، وكانت ظئر له .

(٤) الرواحل : الابل التي صلحت أن يوضع عليها الرحل ؛ غاولهم ، من المغاولة ، وهي الاغتيال ، والمراد هنا المسابقة . يصف عامر بأنه يقرن الخيل الى الابل إذا اراد حرباً ، وكانت العرب إذا ارادت حرباً ركبوا الابل وقرنوا اليها الخيل لاراحتها .

(٥) المفضل : المفضليات ٢/١٠٢ ـ ١٠٣

(٦) الصرمة : القطعة من الابل . العزب : المتنحية ، يقول : ما جرّأك علي اليوم وقد كنت لا تقدر على ذلك قبل اليوم

تالله لو لا ان تشاءى أهلها ... ولشر ما قال امرؤ ان يكذبا [1]
لبعثت في عرض الصراخ مفاضة ... وعلوت أجرد كالعسيب مشذبا [2]
لتركتم إبلي رتاعاً إنني ... مما أرُدُّ الجيشَ عنها خيبا
لله عوفٌ لابساً أثوابه ... يا لهف نفسي قرن ما أن يغلبا [3]

والمعقّر بن أوس البارقي يصف الصراع بين حاجب بن زرارة وزَهْدم العبسي . وكان المعقر حليفاً للعامريين والعبسيين ، ولكنه مع ذلك يشيد ببطولة حاجب ويضعه في مقام واحد مع زهدم في الصراع والمصاولة والثبات ، انصافاً له ، واعترافاً بقدرته ، وحباً في اظهار هذا الخلق النبيل الذي عرف به الفرسان فيقول [4] :

هوى زهدم تحت الغبار لحاجب ... كما انقض أقنا ذو جناحين ماهر
هما بطلان يعثران كلاهما ... اراد رئاس السيف والسيف نادر [5]
فلا فضل إلا ان تكون جراءة ... وذو بدنين والرؤوس حواسر

اما دختنوس فتصف في يوم شعب جبلة لقاء قومها التميميين مع كعب وكلاب من ربيعة ، وقد قتل في هذه الحرب أبوها . ورجعت تميم من الحرب خائبة مهزومة . وهي في هذه المقطوعة تبرّ هزيمة قومها وتنصف اعداءها ، وتعترف لهم بالقوة والمنعة على الرغم من انتصارهم فتقول [6] :

لعمري لأن لاقت من الشر دارم ... عناء لقد ابت حميداً ضرابها
فما جبنوا بالشعب إذ طيرت لهم ... ربيعة تدعى كعبها وكلابها
عصوا بسيوف الهند واعتكرت لهم ... براكاءُ موت لا يطير غرابها

---

(١) تشاءى : تفرق (٢) الصراخ : الاستقاءة . المفاضة الدرع
(٣) اثوابه : سلاحه . (٤) ابو عبيدة ، النقائض ٢ / ٦٧٧
(٥) يعثران : يسيران الى انهما بطلان . ورئاس السيف : الداخل في المنبض منه ، الدقيق أي كل واحد منهما يطلب رئاس السيف لقتل صاحبه .
(٦) ابو عبيدة : النقائض ٢ / ٦٦٦

اسود شرى لاقت أسود خفيـة مـرابيلها المـاذيُّ غلب رقابهـا

وعند ما وقعت الحرب بين عبس وفزارة ، قتل حذيفة بن بدر وأخوه حمل بن بدر ، فقال قيس بن زهير بن جذيمة (وهو عبسي) يرثي حذيفة بن بدر (وهو فزاري) وقـد جزع عليه : وفي هذا ذروة الانصاف [1] .

كم فارس يُدعى وليس بفارس وعلى الهباءة فارس ذو مصدق
فابكوا حذيفة لن تُرثُّوا مثله حتى تبيد قبـائل لم تخلق

وهذان البيتان في أبيات له .

فثاروا وثرنا والمنيـة بيننا وهاجت علينـا غمرة فتجلت
واحموا حميٌّ ما يمنعون فأصبحت لنا فلعن كانت وقوفاً فخلت

ولا بد لي وأنا أعقب على موضوع الانصاف من أن أشير إلى أن اهمية هذه القصائد لم تقتصر على الاعتبار بها ، والتمثل بأبياتها في باب الانصاف ، وهو الجانب الخلقي ، وانما جاوزت اهميتها الى احتفاء الرواة باعتبارها من اللوازم التي تجب الاحاطة بها ، والالتزام بحفظهـا .

ويبدو ان هذه القصـائد كانت كثيرة ومتعددة ، وان الرواة كانوا يتسابقون الى حفظهـا ، ويتنافسون في الاقبال على قراءتها ، لما عرف فيهـا من جوانب تستحق الحفظ والمنافسة . وربما حملت هذه الاهمية الرواة من رواد المربد ، والجمـاعات التي كانت تلزم المسجد الجامع بالبصرة على عدم الاعتراف بالراوي اذا لم يتوفر على حفظها وحفظ اشعار اخرى تتعلق بأغراض شعرية نادرة .

وقد أشار الجاحظ اشارة صريحة الى هذه الاهمية فقال : وقد ادركت رواة المسجديين والمربـديين ومن لم يرو اشـعار الجاهليين ولصوص الاعراب ، ونسيب الاعراب والارجاز الاعرابية القصار ، واشعار اليهود والاشعار المنصفة فانهم كانوا لا يعدونه من الرواة [2] .

نوري حمودي القيسي

---

(١) ابن هشام : السيرة ١ / ٣٠٧

(٢) الجاحظ . البيان والتبيين ٤/٢٣ تحقيق عبد السلام هارون وقد افدنا في هذا النص الدكتور علي الجواد الطاهر فله جزيل الشكر .